

## الأمكنة في أشعار الثالوث الأمويّ من العلميّة إلى الاعتمال الإنشائيّ

أ. الجداري عمارة، جامعة سوسة/تونس

ملخص:

نَعْنِي باسم المكان العلم الموضوع الذي يشكّل مدلوله حيّزا جغرافيا معلوما تاريخيا. وهذا النوع من الأسماء متواتر في النصوص الشعريّة. ولئن كان اهتمام الدرس النقديّ به واضحا وجليا فإنّ الوظيفة الإنشائيّة للمكان العلم في تفاعله مع أقسام القصيدة مازال مغريا بالبحث والدراسة. فخصصنا هذا المقال للبحث في اعتماله الإنشائي من خلال نماذج من نصوص الثالوث الأموي.

الكلمات المفتاحية: الشعر القديم - المكان العلم - الاعتمال الإنشائي

**Abstract :** By proper noun we mean the locality whose significance suggest represents a historically known space. This kind of nouns is very frequent in poetry. Though it gained much heed by critics. The constructivist role of the proper noun in its interaction with the poem parts is still luring for further scrutiny. Thus we dedicate this paper to explore its constructivist processing through samples of the Omayyad tripartite.

**Key words:** Arabic poetry - actual lieu - poetic form

تمهيد:

لا يتنزّل المكان في النصّ الشعريّ باعتباره عنصرا لغويا إنّما يكشف عن اعتمال إنشائيّ شعريّ مميّز. ونرمي بالاعتمال الإنشائيّ إلى ما يمكن أن تقصده اللغة من فعل اعتمل فيجمل ابن منظور قوله<sup>(1)</sup> "واعتمَل الرجلُ عَمَلٌ بنفسه (...)" وقيل العَمَلُ لغيره والاعتمَالُ لنفسه (...). والاعتمَالُ أفعال من العَمَلِ" فكانت قراءتنا المعجميّة دافعة إلى اعتماد لفظة الاعتمال للدلالة على ما ينهض به المكان من وظيفة إنشائيّة

في النصّ الشعريّ وفق تشكّله الدلاليّ والنبويّ. ولذلك سنحاول توظيف هذه اللفظة نقدياً للبحث في حضور المكان وطرق نهوضه بالبعد الإنشائيّ في النصّ الشعريّ وسنختار نماذج شعريّة من دواوين الثالث الأموي الفرزدق والأخطل وجريير.

وسنستعين في مقارنة الاعتمال الإنشائي للمكان العلم بحضوره في أقسام القصيدة المعروفة وبنيتها الفنيّة والإيقاعيّة والغرضيّة وصورها ومواضيعها مع مقارنة تشكّلاته التعبيريّة وتوسّلاته الفنيّة.

والمكان عند أهل اللغة الموضع<sup>2</sup> ووزنه مفعل<sup>3</sup> وجمعه أمكنة وأماكن<sup>4</sup> وأجراه البعض على فعال<sup>5</sup>. ولئن تراوحت رؤى اللغويين بين الاتفاق والاختلاف في مقارنة المكان لغويّاً فإنّ الدرس النقديّ الأدبيّ قد قاربه من رؤى متعدّدة.

فقد بلغت عناية الدرس النقديّ بالمكان قديماً وحديثاً عربياً وغريباً شأواً مهماً. لكنّ هذه العناية ظلّت تشوبها بعض الإشكالات. وسنحاول في هذا القسم الوقوف على جردٍ نقديّ لجملة من الدراسات النقديّة للكشف عمّا يشوبها من ملاحظات. وقد تعامل الدرس النقديّ العربيّ القديم مع المكان في النصّ الشعريّ من جهات مختلفة تنوّعت مجالاتها لغويّاً وجغرافياً وأدبياً صرفاً.

**1- الرؤية اللغويّة والمكان:** قاربت الرؤية اللغويّة المكان واعتنت به باعتباره اسماً دالاً على مكان وقوع المعنى الذي دلّ عليه هذا الاسم وباعتباره ظرفاً مبهماً يدلّ في سياق الإفادة النحويّة للجملة على معنى المكانيّة أو المكان الذي يقع فيه الحدث. ولئن كانت هذه القراءة اللغويّة قد اعتنت بالمكان بمعزل عن النصّ فإنّها قد جعلته أساساً نظريّاً للتواصل<sup>(6)</sup>.

**2- الرؤية الجغرافيّة:** كانت الرؤية الجغرافيّة<sup>(7)</sup> على خلاف الرؤية اللغويّة أقرب إلى النصّ الشعريّ فبعض المؤلّفات النقديّة العربيّة القديمة التي اعتنت بالمكان قد تنقّبت

المدونات الشعرية للبحث عن الدلالات المكانية والبحث لها عن أساس واقعي وقد كانت هذه القراءات تشوبها عديد النقائص للبعد الفاصل بين الأساس الجغرافي والواقعي لاسم المكان والبعد الإنشائي للنص الشعري.

ولئن كشفت هذه القراءة عن مادة شعرية غزيرة فإنها بقيت رؤية نقدية غير واضحة مؤثرة في النص تأثيرا سلبيا تجمد ما يضيفه من أبعاد إنشائية وتخيلية. وتحصر التعامل معه باعتباره أساسا جغرافيا علميا وتركز على تعداد المواضع والأماكن وهو ما يكشف عن مسافات فاصلة بين ما يحقّقه الشعر وما ترمي إليه المؤلفات الجغرافية الدارسة للنص الشعري.

**3- الرؤية النقدية الأدبية والمكان:** لم تولّ الرؤية النقدية الأدبية القديمة المكان أهمية بالغة ولم تعتن به باعتباره عنصرا رئيسا في مباحثها. لكن ذلك لا يخفي وجود علامات نقدية متعلقة بالمكان في علاقته بالنص الشعري. فكان الدرس النقدي الأدبي القديم يقارب المكان لا في النص الشعري إنما في تأثيره في إنشاء النص الشعري. فارتبط المكان بعوالم خارجة عن النص الأدبي سواء باعتباره عنصرا مؤثرا في حياة الشعراء (8) أو في لغتهم (9) أو في إبداعهم (10). لكن بعض الشذرات النقدية المتعلقة بالمكان يمكن أن نستشفها من القراءات الباحثة في بناء القصيدة وتشكيل صورها ولغتها. وقد اعتبر حضور المكان سبيلا لرصد قدرة الشاعر وإعجازه وحدودهما (11).

ويدفعنا ذلك إلى الإقرار بأن المكان في الدراسات النقدية العربية القديمة لم يكن علامة نقدية مميزة، بل كان الحديث عنه في ثنايا مباحث مختلفة، ولعل ذلك يُردُّ إلى حداثة الوعي بهذا المبحث. فالدراسات النقدية العربية لم تهتمّ بالمكان اهتماما مباشرا إلا في فترات زمنية متأخرة مع التجارب النقدية الحديثة.

**1- المكان في الدرس النقدي الحديث:** كان النقد العربي الحديث يتعامل مع المكان باعتباره عنصراً رئيساً في النص الأدبي روايةً أو شعراً. وقد كانت العناية به نابعة من مستويين مختلفين، يتمثل الأول في الإحساس بالمكان ويتمثل الثاني في تأثير الفضاء الخارجي والوسط الطبيعي في الذات المبدعة. وتعددت الدراسات المتعلقة بالمكان باعتباره عنصراً موصوفاً مؤثراً في حياة الجاهلي<sup>(12)</sup> أو باعتباره عنصراً إشكالياً<sup>(13)</sup> أو باعتباره سبيلاً للكشف عن المستويات الفنية التي تنهض ببناء الصورة ولغتها ومجازاتها<sup>(14)</sup> أو باعتباره فضاءً متخيلاً<sup>(15)</sup> يقوّض المسافة الفاصلة بين الخيالي المنجز بالنص والواقعي المادي، أو باعتباره علامة دينية مؤثرة في النص ومبدعه ومتقبله<sup>(16)</sup>، أو باعتباره فضاءً شعرياً يكشف عن علاقة المكان بالذات الإنشائية للنص<sup>(17)</sup>، أو باعتباره وسيلة تعبيرية يروم بها الشاعر تجنب الإسهاب والإطناب ساعياً إلى تحقيق التأثير في المتلقي باعتباره فضاءً موصوفاً يعكس وظائف بلاغية ولغوية متنوّعة<sup>(18)</sup>...

ورغم تنوّع هذه القراءات المتتوالفة للمكان فإنّها ظلّت مرتبطة بمقولات نقدية غريبة. فكان الدرس النقدي العربي الحديث ينسخها مهملاً العناية بالمادة الشعرية الغنية بالحضور المكانيّ باعتبارها تفاعلاً إنشائياً فريداً يصنع مقولاته من اللغة.

#### - المكان في الدرس النقدي الغربي:

كان الدرس النقدي الغربي مُلهماً وكان أكثر اهتماماً بالمكان إذ بلغت الدراسات النقدية المهتمّة بالمكان شأواً مهماً. واعتنت بوظيفة المكان في النص الأدبي ومختلف تشكلاته وتوسلاته وانطلقت في مباشرة الحضور المكانيّ من مستويات متنوّعة مثل المستوى الأسطوريّ. فكان لها السبق في إثارة مسائل متنوّعة على غاية من الأهميّة

كانت تمثل أساسا نظريًا لدارسي الأعمال الأدبية. وكان لها التأثير البالغ في الأعمال النقدية العربية.

لكن هذا الاهتمام بالمكان ظلّ مركزًا على الأعمال الروائية أكثر من الأعمال الشعرية.

وتعود الدراسات المعنوية بالمكان إلى قراءات جمالية صرفة شأن ما دأب عليه باشلار (19) الذي اهتم بدراسة القيم الرمزية المرتبطة بالمناظر التي تتاح للشخصيات سواء في أماكن إقامتهم مثل البيت والغرف المغلقة أو في الأماكن المفتوحة الخفية وألظاهرة المركزية والهامشية. وانطلق في هذا الاهتمام من مسألة [أحلام اليقظة]. وكان لهذه الدراسة أثرها في الأعمال النقدية الأدبية اللاحقة (20).

وتنوّعت المداخل لدراسة المكان لكنّها ظلت رؤيات محدّدة مسبقا. فكان المدخل محدّدا لنوعية الدراسة. فقد ارتبط المكان بالهوية في أعمال لارتيلو فرانسواز [Lartillot Françoise] (21)، لكنّ هذه الهوية ما هي إلاّ هوية إنشائية وقد توّسلت الباحثة بخطاب مجازي واستعاريّ إيحائيّ، وإن لم يُدرّس المكان في ذاته إنّما من جهة الذات الإبداعية وكيفية رؤيتها للمكان وتعاملها معه تعاملًا يُحدّد موقعها وقراءتها وتفاعلها وانسجامها معه.

وكانت الجمالية الإنشائية سبيلا إلى رصد التفكير الإنشائيّ عند إيف بونفوي [Yves Bonnefoy]. فكان المكان عنصرا رئيسا يحمل مستويات إشكالية متنوّعة بل اعتُبر في ذاته عنصرا إشكاليّا (22).

لكنّ أعمال جون مارك جيتي [Jean Marc Ghitti] (23) كانت أعمق، فلننّ لم تعتن بالمكان في ذاته فإنّها قدّ تناولت المكان في علاقته بالخطاب من خلال الأعمال

الأدبية لأندريه مالرو [André Malraux] وقد توّسل الكاتب بتجربة المتاحف وتجربة الأمكنة من خلال مدينة الجيزة وإله الشمس...  
وقد تجاوز الاهتمام بالمكان علاقته بالخطاب إلى اعتباره سلطة متحكّمة في العلاقات الإنسانية والاجتماعية من خلال كتاب كلايف بول [Paul Claval]<sup>(24)</sup>. ورغم أنّ للمكان أهمية بالغة تتشكّل من خلال أثر المكان وسلطانه على المجتمع والإنسان والمجموعة بصفة عامّة فإنّ الباحث قد أهمل كل الإحساسات التي من الممكن أن يتعامل معها الإنسان تجاه المكان بل ظلّ المكان عنصراً مستتبداً يجمّد كلّ إحساس بالانتماء وينفي كلّ الأبعاد التخيلية. وهو ما دأب على إثباته العديد من النقاد مستثمرين ما ذهب إليه باشلار [Gaston Bachelard] من أحلام اليقظة<sup>(25)</sup> فتعاملوا مع المكان باعتباره مُتصوِّراً يتجاوزه طرفاً التنظيم والحلم. وقد أُجمِلت هذه الأفكار في كتاب جاك ماسيبو بيزي [Jaque pezeu Massabiau]<sup>(26)</sup> الذي توّسل بالبيت مكانا يكشف عن مستويات نفسية تتعلّق بتصوّره من جانب، وفضاءً يمثّل الحلم من جانب ثانٍ، ومجالاً منظّماً من جانب ثالث. فكان البيت مكاناً يمثّل الغطاء والحماية للذات، ويحتمل الحلم باحتواء ذواتنا. فتنزّل واصلاً بين الذات والعالم الخارجي ينظّم حمايتها ويفتح لها أبواب الحلم. واكتسب أبعاداً ثلاثة مهمّة، فهو يوفّر الحماية لساكنه، ويصله بالعالم الخارجي، ويبعث فيه الحلم والذاكرة. ولعلّ قيمة هذا العمل النقديّ تكمن في إكساب التحليل الأدبيّ مجالات جديدة تتجاوز اعتباره جزءاً من شمولية النظرة الأدبية التي ذهب منحها مورييس بلانشو [Maurice Blanchot]<sup>(27)</sup> في دراسته الفضاء الأدبيّ.

ولعلّ هذه النظرة قد تكتسب دلالات جديدة مع قراءة السيميائيين إذ كانوا يعتبرون بنية الأمكنة الشعرية ما هي إلّا نمذجة للمكان الخارجي<sup>(28)</sup> لكنّ الأهمية ليست في

العلاقة بالواقع الخارجي إنّما في تشكّله في النصّ الأدبيّ لذلك ذهب المنظر السوفيّاتي لوتمان [Lotman]<sup>(29)</sup> إلى تنزيل مشكلة الفضاء ضمن المكوّنات اللغويّة للعمل الفنّي. فكان يعتبر أنّ البنيات المكانية ما هي إلاّ أحد الأنساق التي يقوم عليها النصّ الأدبيّ فهي تمثّل نموذجاً لبنية الأمكنة الواقعيّة وتكتسب دلالة عميقة عند وضعها في مقابلة مع بقيّة الأنساق المكوّنة للنصّ الأدبيّ مثل الزمان والماء والحيوان، أو لغيره من العوالم المجاورة له مثل الواقع الجغرافيّ والاجتماعيّ والنفسيّ. فتجلّت أهميّة المنظومة المكانية -حسب لوتمان- عنصراً منسقاً يضيء بقيّة مكوّنات القصيدة أو تتشكّل حوله العناصر اللامكانية للنصّ الأدبيّ<sup>(30)</sup>.

إنّ المقاربات النقديّة لدراسة المكان تكشف عن أحكام تنتزّل في أحيان كثيرة غريبة عن النصّ الشعريّ القديم مسقطة عليه. فكانت القراءة غير واعية بالنص وملايساته.

ولعلّ مقارنة النصوص الشعريّة القديمة ومتابعة حضور الأمكنة فيها والوقوف على تشكّلها يمكن أن ترفع الغموض عن بعض الصور والموضوعات وتكشف عن الأبعاد والوظائف التي تقوم بها هذه الأماكن في سياق أو موضوع أو غرض شعريّ معيّن.

## 2- الاعتمال الإنشائي للمكان العلم في النصّ الشعري:

يحضر المكان العلم في النصوص الشعريّة حضوراً لافتاً. لكنّ هذا الحضور يحمل إشكالات متنوّعة تتعلّق بأهميّته الواقعيّة وأهميّته النصّيّة ومدى التلازم بينهما والجدليّة التي يحدثها المستويان. والوقوف على هذه الجدلية والخوض فيها لا يمكن أن يدرك إلاّ من خلال مقاربتنا للنصوص لأنّ النصّ في ذاته هو السبيل الوحيد الذي من الممكن أن يكشف عن كيفية اشتغال المكان العلم وطرق تشكّله.

وكان المكان العلم حاضرا في مختلف أقسام القصيدة (القسم الطلليّ وقسم الرحلة وقسم النسب... ) وفي مختلف الأغراض (المدح والفخر والهجاء والثناء...) وفي شتى المواضيع...

وهذا الحضور اللافت فضلا على تنوع الدلالات والمعاني فيه، يجعل المكان العلم حريّا بالبحث والدراسة وفق ما تنهض عليه من أقسام متعارف عليها تحظى بإجماع الدرس النقديّ القديم. وسنحاول من خلال هذه المقاربة تبين كيفية اعتمال المكان العلم وتشكله في النصّ الشعريّ وكيفية إسهامه في إنشائيته.

ونعتمد مدونة شعريّة تستحضر في بناء نصوصها المقاييس التي ضبطتها المدونة النقديّة القديمة. فكانت هذه النصوص تمثل السلطان النموذج الذي يمكن أن يمثّل رمز الهداية والاتباع عند الشعراء. وقد حافظ بعض شعراء القرن الأوّل على مستويات هذه السنّة ونستدلّ على ذلك ببعض نصوص الثالوث الأموي الفرزدق<sup>31</sup> والأخطل<sup>32</sup> وجريّر<sup>33</sup>.

وسنتوسّل في معرفة حضور المكان العلم وطرق تشكّله واعتماله بالقسمين الشهيرين الأوّلين في القصيدة وهما القسم الطلليّ وقسم وصف رحلة الطعانين باعتبارهما أكثر الأقسام استدعاءً للمكان العلم.

#### أ- الاعتمال الإنشائي للمكان العلم في القسم الطلليّ:

يعدّ القسم الطلليّ في القصيدة القديمة استهلالا يقف فيه الشاعر على آثار الحبيبة ذاكرة الديار باكيا شاكيا... فكان هذا القسم من القصيدة يهزّ مشاعر الذات الشاعرة والذات المتقبّلة. وكان على أهميّته يصوغه الشاعر متوسّلا بالتجربة الأدبيّة في ما يتبعه من آداب السنّة الشعريّة وبالتجربة المعيشة وبما يسعى إلى ارتسامه في ذهن



المتقبل من جزئيات مألوفة مثل الأثافي والرماد والمناخ... وتشكيلها تشكيلا فنياً مقنعا ومؤثراً.

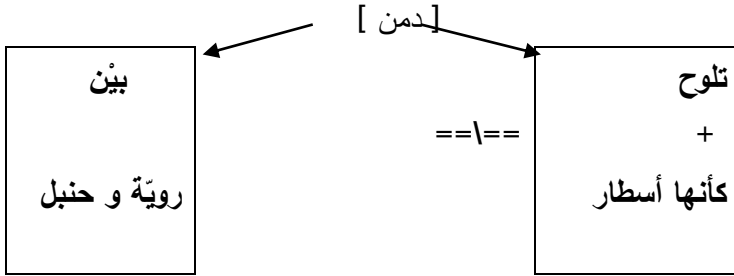
وفي هذا التشكل ينتزل المكان العلم ليسهم في صياغة هذا القسم صياغة إنشائية فريدة. فهض المكان العلم في الطلل بأبعاد دلالية متنوعة فأضفى على الطلل إثباتاً ضد العوامل الطبيعية رياحا وأمطاراً وضد الاحتمال والوهم وضد البلاء والامحاح.

- وقوف المكان العلم ضد عوامل الطبيعة:

كثيراً ما ينتزل المكان العلم ليثبت الطلل أمام فعل العوامل الطبيعية بشتى صروفها. ويمكن أن يتجلى ذلك في عديد الشواهد الشعرية مثل قول الفرزدق [من الكامل] (34):

"أَعْرِفَتْ بَيْنَ رُؤَيْتَيْنِ وَحَنْبَلٍ \* \* دِمْنًا تَلُوحُ كَأَنَّهَا أَسْطَارُ  
لَعِبَ الرِّيحِ بِكُلِّ مَنْزِلَةٍ لَهَا \* \* وَمَلْئَتْ عَيْنَاتُهَا مِدْرَارُ"

فالشاعر يحنار ويبيدي ذهوله وهو يقف على الديار التي هجرها أهلها وأثرت في معالمها الريح والمطر فشبه هذه الدمن بالأسطار لبيان فعل الطبيعة رياحا وأمطاراً فيها. ويستدعي في هذا الوصف موضعين/مكانين علميين [روية] و[حنبل] وجعل هذه الدمن [تلوح] بما يحمله فعل لاح من صعوبة التحديد. فوجد الشاعر في المكانين العلميين وسيلة تقابل هذه الصعوبة فرفع عنها الحجب. فالدمن قد تنزلت بين وصفين، وصف أول يدقق تحديدها بظرف بين مكانين علميين، ووصف ثان يكسبها جانباً من الغموض. ويمكن أن نمثل ذلك بالرسم التالي:



إنَّ أهميّة المكانين العلمين [روية] و [حنبل] تتمثل في ما يمكن أن تنهض به من رفع حال الغموض التي غطت الدمن. فكأنَّ المكان العلم قد وقف أمام عوامل الطبيعة ليوحي بإثبات هذه الدمن.

ويبدو الطلل الذي تؤثر فيه الرياح والأمطار يطلب الشاعر تحيَّته. لكنَّ الطلل المحيِّي يحتاج إلى إثبات أمام فعل عوامل الطبيعة كما يتجلى في المطلع الطللي لقصيدة يمدح فيها جريز الوليد بن عبد الملك ويذكر هدم الكنيسة قائلاً [من الكامل]<sup>(35)</sup>:

"حَيِّ الدِيَارِ بِعَاقِلٍ فَالْأَنْعَمُ \* \* كَالْوَحْيِ فِي وَرَقِ الزُّبُورِ الْمُعْجَمِ  
 طَلَّلَ تُجْرِبُهُ الرِّيحُ سَوَارِيَا \* \* وَالْمُدْجَنَاتُ مِنَ الشَّمَالِ الْمِرْزَمِ"

فيقف على الطلل وقفة مخصوصة مرتبطة بتحيّة الديار التي يشبّها بما كُتب وأُعجم تنقيطاً وحركة حتى أُزيلتْ عُجْمَتُهُ. وفي ثنايا التحيّة والتشبيه يتنزّل المكانان العلمان [عاقل] وهو واد لبني أبان بن دارم<sup>(36)</sup> و [الأنعم] موقع بالعالية<sup>(37)</sup>. فكانا حاملين لوظيفة إنشائية تجلّت في تشكيل طلل يتجاذبه طرفا العدم والوجود. وتمثّل العدم في تشبيهه بالوحي وفي فعل الرياح والسحاب المرعد (المرزم) الممطر (المدجنة) ليل نهار وتمثّل الوجود في الإثبات بالإيحاء بمكان علم. وبين الطرفين يتشكّل طلب القيام بفعل التحيّة. لكنَّ التحيّة لا تكون لمكان معدوم متأثر بظروف طبيعية متنوّعة

وفاعلة، إنّما لمكان ثابت يرتبط بمكان يوحي بالعلمية. فكانت قيمة المكان العلم في إثباته المكان الموصوف وإيحائه الإنشائي والدلالي.  
ويتنزّل الطلل مكانا معلوما معروفا رغم ما فعلته الرياح والأمطار بفضل ما نهض به المكان العلم مثل المطلع الطللي للقصيد التي يهجو فيها جرير الأخطل في قوله [من الوافر]<sup>(38)</sup>:

"عَرَفْتَ بِبِرْقَةِ الْوَدَاءِ رَسْمًا \* \* \* مُحِيلًا طَالَ عَهْدُكَ مِنْ رُسُومِ

عَفَا الرِّسْمِ الْمُحِيلِ بِذِي الْعُنْدَى \* \* \* مَسَاحِجُ كُلِّ مُرْتَجِزٍ هَزِيمِ

فيقف على الأطلال وقفة يعرّف من خلالها رسما يشي دلاليًا بصعوبة معرفته فهو رسم بال تسحجه الأمطار الرعدية بشدة. ويكرّر صفة المحيل مرتين للدلالة على بلاء الرسم لكنّ التناقض بين فعل [المعرفة/عرفت] وصفة امتداده الزمني [حولا كاملا] يجعل الشاعر يستدعي المكان العلم ليؤكد فعل المعرفة. فجعل المكان بذلك مقابلا لحركتين في النصّ تتمثل الحركة الأولى في صفة الامتداد الزمني فقد مضى عليه حول كامل وعبر عنها مرتين [محيلا-المحيل] وتتمثل الحركة الثانية في ما فعلته الأمطار الرعدية في الرسم [مساحج كل مرتجز هزيم]. فكان المكان العلم حاملا لوظيفته اللغوية من جانب والوظيفة الدلالية من جانب ثانٍ.

ويكون المكان متأثرا بالامتداد الزمني والظروف الطبيعية مما يضيف عليه جانبا من قلّة الوضوح فيستدعي الشاعر المكان العلم كما في قول الأخطل [من الطويل]<sup>(39)</sup>:

"أَتَعْرِفُ مِنْ أَسْمَاءَ بِالْجَدِّ رَسْمًا \* \* \* مُحِيلًا وَنُوبًا دَارِسًا قَدْ تَهَدَّمَا؟

وَمَوْضِعَ أَحْطَابٍ تَحَمَّلَ أَهْلُهُ \* \* \* وَمَوْقِدَ نَارٍ كَالْحَمَامَةِ أَسْحَمَا

عَلَى آجِنٍ أَبَقَتْ لَهُ الرِّيحُ دِمْنَةً \* \* \* وَحَوْضًا كَأَدْحِي النَّعَامَةِ أَثْلَمًا"

يطرح الشاعر سؤال معرفة ظلل أسماء ويجعل لهذا الظلل صفات متعدّدة، فهو ظلل قد مرّ عليه حول [محيلا]، دارس متهدّم لم يبقّ منه إلّا نؤي وماء آسن تقادم عهده. فكان الظلل بهذه الصفات صعب التحديد فألحقه الشاعر بموضع علم يدفع عنه هذه الصفات. فكان المكان العلم [الجد] ويسمه ياقوت في معجمه بجدّ الموالي<sup>(40)</sup> مكانا يثبت من خلاله الشاعر بقاء هذا الظلل موجودا. وبوجوده يكون مستجيبا لسؤال المعرفة [أتعرف]. فكان الخطاب يمرّ بثلاثة أطوار:

(سؤال المعرفة + مكان علم + ظلل متهدّم دارس محيل).

وكانت هذه الأطوار مرتّبة بطريقة يتوسّط فيها المكان العلم سؤال المعرفة من جهة وصفات البلاء والتهدّم من جهة ثانية. فكان المكان العلم بهذه الوسطيّة يسهم في الإجابة عن سؤال المعرفة من جانب ويسهم في رفع صفات الفناء عن الظلل من جانب ثان. فكانت وظيفته إنشائيّة بامتياز.

وهو الأمر الذي يمكن أن يتجلّى في قول الأخطل في قصيدة مدحيّة قالها في عكرمة الفيّاض بقوله [من الكامل]<sup>(41)</sup>:

"لِمَنْ الدِيَارُ بِحَائِلِ فُوعَالٍ \* دَرَسَتْ وَغَيْرَهَا سِنُونُ حَوَالِي؟

دَرَجَ البَوَارِحُ فُوقَهَا فَتَنَكَّرَتْ \* بَعْدَ الأَنِيسِ مَعَارِفُ الأَطْلَالِ"

فيقف على الأطلال مستفهما عنها. ويطرح سؤال [لمن الديار؟] ويطنب في وصفها<sup>(42)</sup> فجعلها متأثرة بالرياح والأمطار. ويبين الاستفهام والوصف يتنزّل المكان العلم [وعال] فكان الرابط بينهما من جانب والعنصر المثبت للجواب من جانب ثان. إنّ المكان العلم بهذا البعد اللغويّ يثبت أطلالا تظلّ بصفات أقرب إلى الامّحال وبلاستفهام أقرب إلى الاحتمال.

- المكان العلم ضدّ الوهم والاحتمال:



<b>العجز</b>	<b>=\=</b>	<b>الصدر</b>
<b>احتمال كأن + نفي: لم تحلل =\= ظرف إثبات: بين الكناس + ظرف2: بين الأعزل</b>		

إنّ التقابل الذي غلب على بناء البيت الشعريّ إنشَاءً يكشف عن جانبيّين من صفات [الديار] التي يُحتمل وجودها في الصدر ويتأكّد في العجز. وما وسيلة إثبات وجودها إنشائيّاً في العجز إلاّ إغناؤها بمكانين علّمين مشفوعين بالظرف المكرّر [بين]. فنهض المكان العلم بوظيفة إنشائيّة في النصّ تمثّلت في إثبات وجود الأطلال وفي بناء البيت الشعريّ بناءً طريفاً. فكان المكان العلم ناهضاً بوظيفته الإنشائيّة في النصّ.

#### - المكان العلم ضد الامحاء والبلاء:

يتّصف الطلل بالعفاء والامحاء فهو طلل دارس بال لكنّ الشاعر يربطه بضرورة الوقوف عليه وإلقاء التحية. فيحتاج المعنى المكان العلم ليرفع حال العفاء ويؤسّس للتحية ويتجلّى ذلك في قصيدة جرير يهجو فيها سدوساً قائلاً [من الوافر](47):

"أَلَا حَيِّ الدِيَارِ وَإِنْ تَعَفَّتْ \* \* وَقَدْ ذَكَرْنَا عَهْدَكَ بِالْخَمِيلِ "

فاستدعى مكاناً علماً [الخميل](48) في سياق مكانيّ مسبق بحرف جرّ "ب" يدلّ على الغاية المكانيّة لكنّ هذا الحضور للمكان العلم قد سبق بالدعوة إلى تحية الديار [ألا حَيِّ الديار] وقد ذكرت عهداً. واللافت أنّ الإفادة المعنويّة في الجملة قد توسّطتها جملة اعتراضية [وإن تعفّت] تنزّل صفة الديار باعتبارها قد تعفّت... فافتراضها العفاء والامحاء يقتضي ردّاً حتّى يثبت التحية فكان سبيله إلى ذلك استدعاء المكان العلم [الخميل]. فكان المكان العلم بهذا الحضور ناهضاً بوظيفته الدلاليّة في النصّ. وهو

الأمر الذي يتجلى في قصيدة لجرير يهجو فيها الفرزدق ويعاتب جدّه الخطفي قائلاً  
[من الطويل] (49):

"الْأَحْيَ رَهْبَى نُمَّ حَيِّ الْمَطَالِيَا \* \* \* فَفَدَّ كَانَ مَأْنُوسًا فَأَصْبَحَ خَالِيَا  
فَلَا عَهْدَ إِلَّا أَنْ تُذَكَّرَ أَوْ تَرَى \* \* \* ثَمَامًا حَوَالِي مَنْصِبِ الْخِيمِ بِأَلِيَا"

فكان الشاعر يحضّ على تحية الطلل الذي حمل صفات متعدّدة تمثلت في التحوّل الذي طرأ عليه فقد كان مأنوساً ثم صار خالياً، وقد كان خيماً مأهولة وصار منصباً باليا يحوطه نبات ضعيف (ثمام) ... واستدعى لذلك مكاناً علماً [رهبي] فكان مؤسساً لما أثرت فيه صفات الطلل.

فاستطاع الشاعر أن يثبت بالمكان العلم وجود طلل طُمِسَتْ ملامحُه. وكانت وظيفته إنشائيّة تعلّقت ببناء النصّ ودلالته في آن.

نخلص ممّا تقدّم إلى أنّ المكان العلم في القسم الطللي لم يكن دالاً على واقعية الحدث ولا يمكن أن يمثّل أساساً تاريخياً لحركة الطلل. إنّما كان يحمل وظيفة استعارية تؤسّس دلالات النصّ الشعريّ. فكان المكان العلم ناهضاً بإثبات الطلل في النصّ الذي كانت تقوم صفاته على تناظرٍ محوريّ بين علامات دافعة إلى الهلاك والبلاء والامحاء بفعل الزمان أو العوامل الطبيعيّة أو صعوبة الإدراك وبين مكان ثابت يجد له أساساً في ذات التقبّل وفي النصّ فيناظر العلامات الأولى وبحقّق الطلل ثباتاً في النصّ وصدى عند المتقبّل. وفي التناظر بين المحورين نهوض بجماليّة النصّ الشعريّ. وتتأسّس للمكان العلم وظيفته الاستعارية التي تبعث دلالات جديدة وتستحدث حسّاً أدبياً فريداً لا يتشكّل إلا في النصّ الشعريّ.

- المكان العلم في قسم رحلة الضعائن:

يمثل وصف رحلة الطعائن قسما رئيسا في القصيدة العربية القديمة وقد اعتنى  
الدرس النقديّ برحلة الطعائن ووظيفتها النبيويّة والدلاليّة<sup>(50)</sup> دون العناية بحضور  
المكان العلم فيها وما يمكن أن ينهض به من دلالات.

#### - المكان العلم يثبت الحال الوجدانية للشاعر:

يتنزّل المكان العلم في القسم الخاصّ بوصف رحلة الطعائن. فثبت أحداثا وحالا  
وجدانية مثلما يتجلّى في مطلع قصيدة للفرزدق يهجو فيها جريرا قائلا [من  
الطويل]<sup>(51)</sup>:

"ألم تر أنّي يوم جَوّ سُوَيْقَةَ \* \* بَكَيْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةُ مَالِيَا

فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْبُكَاءَ لِرَاحَةٍ \* \* بِهِ يَشْتَفِي مَنْ ظَنَّ أَنَّ لَا تَلَاقِيَا"

فاستدعى مكانين علمين يثبتهما ياقوت في معجمه وهما [سويقة]<sup>(52)</sup>  
و[العقيق]<sup>(53)</sup> فهضا بأبعاد دلالية في النصّ. فربط [سويقة] بحدثين تمثل الحدث  
الأول في حال الحزن والبكاء التي يعيشها ويتمثل الحدث الثاني في مناداة  
<<هنيدة>> سائلة عن سبب حاله. لكنّ الوظيفة الدلالية تتشكّل عند افتتاح البيت  
بالاستفهام [ألم تر...؟] فكان استفهاما منفيا ينجز به المتكلم تأكيدا لحاله الوجدانية  
المتوتّرة. وكان التأكيد مرتبطا بالمكان العلم...

فتعاقد الاستفهام المنفيّ مع المكان العلم المثبت للدلالة على حال الشاعر الذي  
يرى في بكائه راحة ويطلب من "هنيدة" وداعا في قوله [من الطويل]<sup>(54)</sup>:

"فَقِي وَدَعِينَا يَا هُنَيْدَةُ فَإِنِّي \* \* أَرَى الرُّكْبَ قَدْ شَامُوا العَقِيقَ اليمَانِيَا"

فربط بالتأكيد [فإنني] على رؤية الركب في مسيره بمكان علم [العقيق]<sup>(55)</sup> ليزيد  
تأكيد فعل الرؤية إثباتا، رؤية الركب الذي قد شدّ الرحيل إلى وجهة البرق والمطر.  
فكان المكان العلم عاملا على إثبات حال الشاعر الوجدانية متماثلا مع الاستفهام



المنفي [ألم تر] في مرحلة أولى وعاملا على تأكيد الرؤية متماثلا مع التأكيد [فإني] في مرحلة ثانية.

فالمكان العلم يحضر في النصّ الشعري ليتماثل مع الدلالة في العملية الإنشائية. وقد يبدو الأمر جليا في ما يذهب إليه الأخطل في مخاطبته رجلا يعنيه <ثور> في قوله [من البسيط] (56):

"وَقَدْ أَقُولُ لثَوْرٍ هَلْ تَرَى ظَفْعًا \* \* يَحْدُو بِهِنَّ حَدَارِي مُشْفِقٍ شَنِقُ  
كَأَنَّهَا بِالرَّحَى سُنْفُنٌ مُلْجَجَةٌ \* \* أَوْ حَائِشٍ مِنْ جَوَاثَا نَاعِمٍ سُحُقُ  
يَرْفَعُهَا الْأَلَّ لِلتَّالِي فَيُدْرِكُهُمْ \* \* طَرْفُ حَدِيدٍ وَطَرْفٌ دُونَهَا عَدَقُ  
حَتَّى لَحِقْنَ وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ وَقَدْ \* \* مَالَتْ لَهُنَّ بِأَعْلَى خَنِيْفِ الْبُرْقُ"

فافتتح المطلع الخاص بوصف الطعائن باستفهامه للرجل الذي يعنيه <ثور> عن الطعن. ثم يطنب في وصف هذه الطعائن وما تركته في نفسه من حال حزن ويذكر [الرحى] و[جواثا] باعتبارها من المواضع العديدة التي مرّت بها القافلة. ويذكر فعل سراب الصحراء وتأثيره فيها. وبين التأثير في ذات الشاعر والتأثر بحال الطريق وصحرائه يتنزّل المكان العلم رابطا بين الإخبار عن رحلة القافلة وبيان الحال الوجدانية للذات الشاعرة المتوترة.

ويتنزّل رحيل الطعائن مؤثرا في الشاعر حين يصيبه من ترحالها الخبل في قصيدة لجرير (57) يهجو فيها الأخطل قائلا [من الكامل] (58):

إِنَّ الطَّعَائِنَ يَوْمَ بُرْقَةٍ عَاقِلٍ \* \* قَدْ هَجَنَ ذَا خُبَلٍ فَرِدْنَ خَبَالًا

فالشاعر يستدعي مكانا علما [برقة عاقل] الذي يحدهه ياقوت (59) لا ليثبت رحلة الطعائن إنّما ليبيّن فعل الطعائن في ذات الشاعر الذي بدا منفعلا يصف نفسه

بالخبيل الذي هاجه رحيل القافلة فازداد خبالا. فالمكان العلم لا يثبت حدثا واقعيًا إِمَّا يثبت حالا وجدانية عند الشاعر.

ومن ثمة كان المكان العلم مرتبطا بالمعنى الإنشائي في النصّ دون التعلّق بالخصائص الواقعية أو الجغرافية التي يمتلكها مسبقا. فكان بين حركة الطعائن والحال الوجدانية، وفي العلاقة بينهما ينهض بعملية إثبات فريدة تتأكد دلالتها في قول جرير [من البسيط]<sup>(60)</sup>:

إِنَّ الْفُؤَادَ مَعَ الظُّغَنِ الَّتِي بَكَرَتْ \* \* مِنْ ذِي طُلُوحٍ وَحَالَتْ دُونَهَا الْبُصْرُ

ف[البصر] مكان علم يمثل حسب ياقوت "رمالات من أسفل أود"<sup>(61)</sup> يستدعيه الشاعر للدلالة على ما تركته الطعائن في نفسية الشاعر. فالطعائن التي رحلت مبكرة رحل معها فؤاد الشاعر اشتياقا. وسرعان ما مرّت القافلة بأمكنة من [ذِي طُلُوح] إلى أَنْ صار [البصر] حائلا دونها. فكان المكان العلم فضلا عن كشفه للحال الوجدانية للشاعر مثبتا لسرعة رحلة الطعائن الراحلة بالحببية. وما يثيره ذلك في نفسه من شوق...

إنّ المكان العلم رغم اكتسابه سمات جغرافية ينتزّل في النصّ ليكشف عن حال وجدانية متوتّرة ويسعى إلى إثباتها في النصّ وإن كُنّا لا نروم التنصيص على البعد الواقعي في النصّ لأنّ العملية الإنشائية تتجاوز الأبعاد الواقعية والامتداد الجغرافي للأمكنة رغم البعد الانعكاسي، وتطلّ منشدة إلى مستويات وجدانية ذاتية تتصرّف في إنشاء النصّ كيفما شاءت. وفضلا عمّا يمكن أن يعكسه المكان من أبعاد وجدانية، يسهم في بناء المعنى في رحلة الطعائن وما يمكن أن تثيره في الذات المنشئة للنص.

- المكان العلم يثبت سرعة الطعائن ويسر تنقلها:

ينتزل المكان العلم في قسم الطعائن متداخلا مع المعنى الشعري إذ يدلّ في صياغته على سرعة الطعائن متجاوزة مرأى الشاعر فيزداد لوعة وحزنا شأن قول الأخطل [من الطويل](62):

فَلَمَّا عَلَوْنَ الْأَرْضَ شَرْقِيَّ مُعْتَقٍ \* طَرَحْنَ الْحَصَى الْحَمْضِيَّ كُلَّ مَكَانٍ

يعتمد الشاعر أداة "لَمَّا" التي تفيد تلازم حدثين. تمثل الحدث الأول في علو القافلة شرقي الأرض وتمثل الحدث الثاني طرحتها الحصى في كل مكان دلالة على سرعة حركتها. واستدعى مكانا علما يثبت به مسار الطعائن. لكنّ هذا الإثبات ينتزل في مستوى لغوي محض. فالمكانان العلمان [معتق] الذي يحدده ياقوت في معجمه باعتباره جبلا بعينه(63) و[الحمض] الوادي بالمنامة لا ينتزلان بخصائصهما الواقعية في النصّ إنّما بدلالاتهما الإنشائية التي يُقدّ وفقها النصّ الشعري. فالمكان العلم كان مُسهِمًا في إثبات حركة الطعائن وسرعتها مبتعدة عن رؤية الذات الشاعرة. والذي يؤكد أنّ المكان العلم، رغم واقعيته التي يثبتها أصحاب المعاجم الجغرافية، يظلّ خاليا من كل إحياء واقعيّ حاملا لأبعاد دلالية متنوعة في النصّ الشعريّ.

وكان وصف رحلة الطعائن في حدّ ذاته راجعا بالإنشاء إلى ذات الشاعر المنشئة المتوترة. وهذا البعد الوجداني يتمشى مع رحيل الحبيبة التي تتميز طعائنها بالإسراع وقد يضطرّ الشاعر إلى استدعاء المكان العلم لإثبات هذه الدلالات مثلما يتجلّى في مطلع مدحية لجربير في عبد الملك بن مروان [من الوافر](64):

أَتَصْحُوْ أَمْ فُوَادِكَ غَيْرِ صَاحٍ \* \* عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرُّوْحِ  
تَقُوْلُ الْعَاذِلَاتُ عَلَاكَ شَيْبٌ \* \* أَهَذَا الشَّيْبُ يَمْنَعُنِي مَرَاحِي؟  
يُكَلِّفُنِي فُوَادِي مِنْ هَوَاهُ \* \* طَعَائِنُ يَجْتَرَعْنَ عَلَى رُمَاحِ  
طَعَائِنُ لَمْ يَدَنَّ مَعَ النَّصَارَى \* \* وَلَا يَدْرِينِ مَا سَمَكَ الْقِرَاحِ

فيذكر رحيل الطعائن وما خلفته في وجدانه من أثر ويبيدي سرعة هذا الرحيل دالاً بفعل [يجتزعن] مرتبطاً بمكان علم [رماح] وهو موضع معروف يحدده ياقوت في معجمه<sup>(65)</sup>. فكان ارتباط الفعل بالمكان العلم دالاً على سرعة هذه الطعائن التي لا يعرفن لبديوتهن عمق الماء القراح.

ويبدو جدير أكثر تأثراً في قوله في قصيدة يهجو فيها الأخطل [من البسيط]<sup>(66)</sup>:

كَأَنَّ أَحْدَاجَهُمْ تُحْدَى مَفْقِيَةً \* \* نَخْلٌ بِمَلْهَمٍ أَوْ نَخْلٌ بِقَرَانَا

فيستدعي الشاعر مكانين علميين ينتزلان حاملين الشك في موضع الأحجاج. فكان المكانان العلمان [ملهم] و[قران] ناهضين ببيان صعوبة تحديد هذه الأحجاج لأن سرعتها تجاوزت نظر الشاعر فعجز عن تحديد مسارها.

إنّ المكان العلم قد حضر في القسم الخاصّ برحلة الطعائن للنهوض بأبعاد شعريّة متنوّعة. فكان بعضها متعلّقاً بالذات الشاعرة وبعضها متعلّقاً بسرعة الطعائن.

أمّا ما تعلّق بالذات الشاعرة فارتبط بالحال الوجدانية وقد دلّ على الفؤاد الذي ترحلّ مع القافلة واشتدّ وجده. وأمّا ما تعلّق بسرعة الطعائن فإنّه يكشف عن أنّ مرأى الشاعر ظلّ عاجزاً عن تحديد مسارها فيعود إلى فؤاده يحرك فيه حُزناً دفيناً. لكنّ هذا الحزن وهذه الرواحل التي أسرعت في تجاوزها للشاعر تفتح مجال رحلة جديدة أمام الشاعر الذي سيجد في قصّده الممدوح سبيلاً جديداً. فكانت رحلته تحمل صفات مختلفة يستدلّ على إثبات معانيها في أحايين كثيرة بالمكان العلم.

#### - المكان العلم في رحلة الشاعر إلى الممدوح:

لئن كانت الأمكنة الأعلام في رحلة الطعائن مؤثّرة في ذات الشاعر الذي يبدو ثابتاً متوتراً تقابله رحلة طعائن الحبيبة متحرّكة مسرعة فإنّ الأمكنة الأعلام في رحلته تظلّ في خدمة معانٍ جديدةٍ لأنّ الشاعر في قصيدته قد تجاوز رحلة مسرعة تشتمل

طرقا سهلة إلى رحلة صعبة تتعزّر في الطريق وفاءً لممدوح يسعى إلى الإقبال عليه. فبعد أن كان ثابتا مراقبا طعائن الحبيبة تتجاوز نظره ومرآه صار يتجشّم صعاب الحركة في رحلة مخصصة تبلوه بصعابها ويتجلى ذلك في قصيدة الفرزدق مخاطبا راحلته يحثّها على المسير إلى الممدوح هشام بن عبد الملك قائلا [من الوافر]<sup>(67)</sup>:

"إلَامَ تَلْفَتَيْنِ وَأَنْتِ تَحْتِي \* \* وَخَيْرُ النَّاسِ كُلُّهُمْ أَمَامِي

مَتَى تُرْدِي الرِّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي \* \* مِنَ الْأَنْسَاعِ وَالْجَلْبِ الدَّوَامِي

وَيُفْقِي الرَّحْلُ عَنْكَ وَتَسْتَعِيثِي \* \* بِمَلْءِ الْأَرْضِ وَالْمَلِكِ الْهُمَامِ"

فكان في رحلته يتخذ من راحلته مجالا للتعبير فيعدها بالراحة والأمان عند الممدوح فلا حاجة للتلفت إلى الورا. ويربط وصول الناقة وراحتها بمكان علم [الرصافة] وهو مكان حدده ياقوت في معجمه<sup>(68)</sup> فكان يذكر رصافة هشام وهو يخاطب الراحلة التي أنهكها السفر وبدت عاجزة عن الإسراع بحلم الشاعر سبيلا ليستحثّها للمسير السريع دون الالتفات إلى الورا لأنّ الأمل عند هشام في رصافته. فكان المكان العلم سبيلا لرصد صعوبة الرحلة من جهة حالة الناقة ولرصد أمل الشاعر في ممدوحه في أن.

ويستدعي الشاعر المكان العلم في سياق مخصوص يلائم المعنى الشعريّ مثلما يتجلى مع الفرزدق حين يقول في قتل وكيع بن حسان قتيبة بن مسلم، مادحا سليمان بن عبد الملك، وهاجيا قيسا وجريرا [من الطويل]<sup>(69)</sup>:

"تَحْنُ بِرُؤْرَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقَتِي \* \* حَنِينِ عَجُولٍ تَرَكِبُ الْبَوَّ رَائِمُ

وَيَا لَيْتَ رُؤْرَاءَ الْمَدِينَةِ أَصْبَحْتُ \* \* بِأَحْفَارِ فَلَجٍ أَوْ بِسَيْفِ الْكَوَاطِمِ"

فيشبهه ناقته في حنينها بالبقرة المطفل التي فقدت عجلها. ويتمنى تداخل الأمكنة بأن تحلّ [زوراء المدينة] بـ[أحفار فلج] أو [سيف الكواظم]. وهي أمكنة أعلام يحددها ياقوت في معجمه<sup>(70)</sup>.

لكنّ تداخلها بهذا الشكل ينفى عنها البعد الواقعي الذي تثبته المعاجم ويجعله سليل ذات شاعرة متوترة أنهكها تعب الرحلة ومشقة الصعاب فلاقى حنينه حنين راحلته التي ظلت في النصّ صوته المشبع بأمل ضياع المسافات وتداخل الأمكنة تجنّباً لصعوبة الرحلة ومشقتها وإن كانت الرحلة في ظاهرها ماديّة إلا أنّ هذا التداخل للأمكنة الواقعيّة [زوراء-فلج-الكواظم] المستحيل الوقوع والتوقع يجعل الرحلة تحمل بعداً رمزياً. وما هذه الأمكنة الأعلام إلا إثبات للبعد الرمزيّ في النصّ الشعريّ. ويحاول الشاعر أن يسحب المشقة على الراحلة متوسّلاً بالمكان العلم مثل قول الفرزدق في قصيدة يهجو فيها جريراً ويفخر بمآثر قومه [من الطويل]<sup>(71)</sup>:

"بَدَأْنَا بِهَا مِنْ سَيْفِ رَمْلِ كُهَيْلَةٍ \* \* \* وَفِيهَا نَشَاطٌ مِنْ مِرَاحٍ وَعَجْرُفٌ  
فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى تَقَارِبَ خَطُوهَا \* \* \* وَيَادُثُ ذُرَاهَا وَالْمَنَاسِمُ رُغْفُ  
وَحَتَّى قَتَلْنَا الْجَهْلَ عَنْهَا وَعُودِرْتُ \* \* \* إِذَا مَا أُنِيخَتْ وَالْمَدَامِعُ ذَرْفُ "

فجعل صعوبة الرحلة منعكسة على الراحلة، لكنّ الراحلة ما هي في نهاية المطاف إلا صوت الشاعر. وليبين الشاعر تعب هذه الرواحل الموصوفة بـ[المناسم الرغف والمدامع الذرف...]. استدعى مسار الرحلة فانطلق من مكان علم [كهيلة] وهو حسب ياقوت "موضع في بلاد تميم"<sup>(72)</sup>. لكنّ هذا المكان العلم لم ينتزل بخصائصه الواقعيّة باعتباره موضعاً في بلاد تميم ولم يكن في النصّ مكاناً موصوفاً يمثل إطاراً للحدث أو دافعاً لعملية قصصيّة شأن الأعمال القصصيّة والروائيّة<sup>(73)</sup>، إنّما تنزل باعتباره دافعاً لعملية إنشائيّة مختلفة يثبت فيها صفات للرواحل التي تكبّدت

مشاقّ الرحلة. فلم يكن المكان العلم موصوفا رغم إحالته المعجمية إلى الواقعي. إنّما كانت النوق هي المعنوية بالوصف باعتبارها تمثل صوت الشاعر وانعكاسا لذاته الشعرية.

ويتنزّل المكان العلم في مواضع عديدة من الشعر القديم لوصف الناقة أو وصف الطريق الذي يسلكه في رحلته إلى الممدوح. ويتجلّى ذلك في قول الأخطل<sup>(74)</sup> متحدّثا عن ناقته [من الكامل]<sup>(75)</sup>:

"وَلَقَدْ تَشُقُّ بِي الْفَلَاةُ إِذَا طَفَّتْ \* \* \* أَعْلَامُهَا وَتَعَوَّلَتْ عُكُومُ  
عُورِ النَّجَاءِ كَأَنَّهَا مُتَوَجِّسٌ \* \* \* بِالْبِنْتَيْنِ مُوَلِّعٌ مَوْشُومٌ"

يفصف في رحلته ناقته الملجمة المتميّزة بالسرعة والنجاء. وشبّها بالثور الوحشيّ الخائف الحذر (متوجّس)... ويحدّد للتشبيه مكانا علما [البنتان] فيتنزّل المكان العلم في موضع إنشائيّ مختلف في هذا الشاهد إذ يبدو إطارا لعقد المشابهة بين الناقة والثور، سواءً من خلال موضعه في الجملة اعتراضا أو من خلال سياقه الدلالي الذي يتجسّد من خلاله عقد المشابهة. ويأخذ عقد المشابهة أبعادا أخرى في قصيدة لجرير يمدح فيها<sup>(76)</sup> أيوبا بن عبد الملك قائلا [من البسيط]<sup>(77)</sup>:

كَيْفَ الْمَقَامُ بِهَا هَيْمَاءَ صَادِيَةً \* \* \* فِي الْخِمْسِ جَهْدٌ وَوَرْدُ السُّدُسِ تَنْحِيْبُ  
قَفْرًا تَشَابَهُ آجَالُ النَّعَامِ بِهَا \* \* \* عَيْدًا تَلَاقَتْ بِهِ قِرَانُ وَالنُّوبُ

يفصف في رحلته الطريق وقد اشتدّ صعوبة. ويستدعي في عملية الوصف مكانين علميين لا لإثبات حدث شعريّ فحسب، إنّما لعقد تشبيه بين اجتماع آجال النعام في هذا القفر واجتماع لجبلي، [قران]<sup>(78)</sup> و[النوب]<sup>(79)</sup>. فكان المكان العلم في هذا الشاهد يحمل وظيفة إنشائية حبلية بالأبعاد المجازية المتشكّلة في عقد التشبيه بين مشبّهين مستحيلين التوقّع لأنّ الجبلين مستحيلان الاجتماع.

إنّ رحلة الشاعر تنتزّل بين مفصلين مهمّين في القصيدة [مفصل أول يركّز فيه على توتّر ذاته بعد رحيل الحبيبة] و[مفصل ثانٍ يُقْبَل فيه على ممدوح أهمّ يسعى أن يثبت له صفات تحقّق له الرجاء] وبين المفصلين تكون الرحلة الصعبة كاشفةً للممدوح ما تجشّمه الشاعر من صعاب لبلوغ عطائه. وتستدعي لإثبات هذه الصعوبة أمكنة أعلاما حاملة أبعادا شعريّة ووظائف دلاليّة فريدة.

لكنّ رغم أنّ أكثر حضور المكان العلم كان بقسمي الطلل والرحلة بصنفيها رحلة الطعائن ورحلة الشاعر فإنّه يخترق كامل القصيدة للنهوض بالبعد الوصفي أو ببناء الصورة البيانيّة. ويتنزّل في القصيدة للنهوض بغايات مدّحية.

- خاتمة:

حضر المكان العلم في قسمي الطلل والرحلة ليحتمل دلالات متعدّدة أضحي من خلالها يحتمل اعتمالا إنشائيًا فريدا فتجاوز المكان العلم حدوده العلميّة وتشكّله الواقعيّ الموضوعيّ ليتداخل مع نسيج النص الداخليّ فتفاعل مع دلالاته وأغراضه وموضوعاته. وقد كان أكثر تجلّيه في مدونة الشعر القديم في قسمي الطلل والرحلة بمستوييها، الرحلة النابعة من النسيب المتعلقة برحلة الحبيبة مفارقة مودّعة، والرحلة التي يتكبّدها الشاعر قاصدا الممدوح متجشّما الصعاب.

وكان الشاعر يروم في مختلف هذه الأقسام تأنيث فضاء شعريّ تتداخل فيه المستويات البيانيّة مع ما يستدعيه من أمكنة ومع ما يرومه من دلالات. فارتبط المكان العلم في قسم الطلل بسعي الشاعر إلى إثباته في وجه العوامل الطبيعيّة المؤثّرة وضد فعل التوهّم والاحتمال وصموده أمام الامحاء والبلاء.



وارتبط في رحلة الطعائن بمشهدين قابلين للتناقض والتضاد، مشهد الحبيبة راحلة مودعة تاركة اللوعة والحسرة في قلب الشاعر مستسهلة الطريق ومشهد رحلة الشاعر يقصد ممدوحه متجسماً الصعاب يتوسم فيه الخير والنعمة والرجاء.

## الإحالات

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة 1414هـ- 1994م. مادة [ع،م،ل]، ج11، ص475.
- 2- الفيروزآبادي (مجد الدين)، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، [د.ت] باب الـ "نون" [فصل الميم]:ص517.
- "والمكانُ: المَوْضِعُ ج : أَمْكِنَةٌ وَأَمْكِنٌ."
- 3- ابن منظور، لسان العرب، مادة [م، ك، ن]، المجلد 13، ص412-415.
- "والدليل على أن المكانَ مَفْعَلٌ أَنَّ العرب لا تقول في معنى هو مَنِي مكانَ كذا وكذا إلا مَفْعَلٌ كذا وكذا، بالنصب..."
- 4- ابن منظور، لسان العرب، مادة [م، ك، ن]، المجلد 13، ص412-415.
- "والمكانةُ المُتَزَلَّةُ عند الملك. والجمع مكاناتٌ، ولا يجمع جمع التكسير (...). والمكانُ الموضع، والجمع أَمْكِنَةٌ كَقَدَالٍ وَأَقْدِيلَةٍ، وَأَمْكِنٌ جمع الجمع..."
- 5- ابن منظور، لسان العرب، مادة [م، ك، ن]، المجلد 13، ص412-415.
- 6- حسنين (أحمد طاهر)، ظرف المكان في النحو وطرق توظيفه في الشعر، سلسلة عيون المقالات العدد 08 دد 1987.
- 7- من المصنفات النقدية الجغرافية التي اهتمت بالمكان وتوسلت بمدونة شعرية غزيرة:  
- الحموي (ياقوت)، "معجم البلدان"، دار الكتاب العربي، بيروت، [د.ت].  
- الزمخشري (أبو القاسم)، "كتاب الجبال والأمكنة والمياه" تحقيق أحمد عبد التواب عوض المدرس بجامعة عين شمس، دار الفضيلة للنشر والتوزيع القاهرة 1319هـ - 1899 م.

- كراتشكوفسكي (أغناطيوس يوليانونفتش)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية: صلاح الدين هاشم، قام بمراجعته: إيغور بلياييف، الناشر: الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، الطباعة: القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1963م.
- البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، [د.ت.].
- المرزوقي (أبو علي)، "الأزمنة والأمكنة في الشعر العربي"، ضبطه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان [د.ت.].
- 8- الجمحي (ابن سالم)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمد شاكر، دار المعارف مصر (سلسلة ذخائر العرب). ج 1 ص 259
- 9- نفسه ج 1، ص 245.
- 10- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية، [د.ت.]، ج 1 ص 79.
- 11- الباقلاني (القاضي أبو بكر)، إجاز القرآن، طبعة عالم الكتب، [د.ت.]. ص 156.
- 12- عبد الحافظ (صلاح)، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، ط 1 دار المعارف، 1983.
- 13- نصير (ياسين)، "إشكالية المكان" - المقالات، ع 6-7 دد، 1987، ص 151.
- 14- عبد الرحمان (نصرت)، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، مكتبة الأقصى، عمان 1976.
- 15- نظيف (رشيد)، فضاء المتخيل في الشعر الجاهلي، النشر والتوزيع المدارس، الطبعة الأولى 2000.
- 16- مشوح (وليد)، مكّة و تجليات المكان في الشعر العربي  
www.dahsha.com/old/viewarticle.php?id=28767

- 17- الفيومي (سعيد محمد)، فلسفة المكان في المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الخامس عشر، يونيو 2007، العدد الثاني، ص 241 - ص 265 .
- 18- العجمي (محمد الناصر)، الخطاب الوصفي في الشعر العربي القديم، الشعر الجاهلي أنموذجاً، مركز النشر الجامعي (تونس) ومنشورات سعيدان سوسة جوان 2003.
- 19-Bachelard (Gaston), La poétique de l'espace, «Quadrige» PUF 4ème édition mars 1989
- 20 - Massabiau (Jaques), La maison, espace réglé espace rêvé, Reclus Gip. 1993.
- 21 -Françoise (Lartillot),Le lieu commun du moi ; identité poétique dans l'œuvre d'Ernest Meistre (1911-1979) ,Berlin, Frankfurt : Lang 1998.
- 22-Née (Patrick), Poétique de lieu dans l'œuvre d' Yves Bonnefoy ou Moise sauvé, P.U.F. 1ere édition, avril 1999.
- 23 -Ghitti (Jean Marc), La parole et le lieu Topique de l'inspiration, les éditions de minuit, Paris 1998.
- 24 - Claval (Paul), Espace et Pouvoir, Presses Universitaire de France.
- 25 - Bachelard (Gaston), La poétique de l'espace, p59.  
La rêverie revient habiter le dessin exact. La représentation d'une maison ne laisse pas longtemps un rêveur indifférent »
- 26 - Massabiau (Jaques), La maison, espace réglé espace rêvé, Reclus Gip. 1993.
- 27 -Blanchot (Maurice), L'espace littéraire, Gallimard, 1988
- 28- قاسم (سيزا) مشكلات المكان الفني. جماليات المكان، الطبعة الثانية دار قرطبة الدار البيضاء 1988. ص 59.

29- Lotman (Youri), Structure du texte artistique, Trade France- Anne  
fournier et autres- éd- Gallimard - 1973.

30- Ibid, p313.

31- الفرزدق، الديوان، طبعة دار صادر، بيروت، [د.ت].

32- الأخطل، الديوان، شرح محمد مهدي ناصر الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.

33- جرير، الديوان، طبعة دار صادر، بيروت، [د.ت].

34- الفرزدق، الديوان، ج1، ص484.

- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2 ص310.

35- جرير، الديوان، ص611.

36- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج1، ص271.

37- نفسه ج1، ص271.

38- جرير، الديوان، ص616.

- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج1، ص399.

39- الأخطل: الديوان، ص348.

- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2، ص113

40- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2، ص113

41- الأخطل، الديوان، ص25 الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج5 ص379.

42- الأخطل، الديوان، ص255.

43- جرير، الديوان، ص124.

44- جرير، الديوان، ص533.

45- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2، ص221.

46- نفسه، ج2، ص221.

47- جرير، الديوان، ص524.

- 48- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج2، ص390.
- 49- جرير، الديوان، ص760.
- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج3، ص107.
- 50- خليف (ميّ يوسف)، القصيدة الجاهليّة في المفضليّات (دراسة موضوعية وفنية)، الفصل الثالث ص ص201-222.
- 51- الفرزدق، الديوان، ص653. يعتبر الشارح هذه القصيدة أوّل قصيدة يهجو فيها الفرزدق جريرا والبعيث.
- 52- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج3، ص286-287.
- 53- نفسه، ج4، ص140.
- 54- الفرزدق، الديوان، ص653.
- 55- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، مادة [ع،ق،ق]، ج4، ص140.
- 56
- الأخطل، الديوان، ص210. المقطع من قصيدة في مدح مسلم بن زياد [من البسيط]:
- 57- جرير، الديوان، ص360. مطلع القصيدة [من الكامل]
- 58- نفسه، ص360.
- 59- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص396.
- 60- جرير، الديوان، ص196.
- 61- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج1، ص430.
- 62- الأخطل، الديوان، ص340.
- 63- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج5، ص154.
- 64- جرير، الديوان، ص76.
- 65- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج3، ص66.
- 66- جرير، الديوان، ص493. في قصيدة مطلعها [من البسيط]:
- "بان الخليط ولو طوّعت ما باننا \*\*\* وقطعوا من حبال الوصل أقرانا"

حي المنازل إذ لا نبتغي بدلا \*\*\* بالدار دارا ولا الجيران جيرانا"

الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج4، ص319.

67- الفرزدق، الديوان، ص449.

68- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3 ص47.

69- الفرزدق، الديوان، ج2، ص616.

70- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3 ص156.

71- الفرزدق، الديوان، ص386.

72- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4 ص496

73-Jallat (Janine), Lieux balzaciens, Poétique, 64. P104.

74- الأخطل، الديوان، ص303 قصيدة مطلعها [من الكامل]:

صَرَمَتْ أَمَامَهُ حَبْلَهَا وَرَعُومٌ      وَيَدَا الْمَجْمَمِ مِنْهَا الْمَكْتُومُ  
لِلْبَيْنِ مِثْلًا وَاخْتِيَارِ سَوَائِنَا      وَلَقَدْ عَلِمْتَ لَعِيرُ ذَلِكَ أُرُومُ

75- نفسه ص 304.

76- جرير، الديوان، ص36 قصيدة مطلعها [من البسيط]:

"هَلْ يَنْفَعَنَّكَ إِنْ جَرَيْتَ تَجْرِيْبُ      أَمْ هَلْ شَبَابُكَ بَعْدَ الشَّيْبِ مَطْلُوبُ  
أَمْ كَلِمَاتِكَ بِسُلْمَانِيْنَ مَنْزِلَةٌ      يَا مَنْزِلَ الْحَيِّ جَادَتِكَ الْأَهَاضِيْبُ"

77- نفسه، ص36.

78- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ج 4 ص 145.

79- نفسه، ج 5 ص182.